تفريغ

قراءة الشيخ عطية اللّه الليبي
في كتاب
مختصر منهاج القاصدين

فصل: العزلة والاختلاط
لابن قدامة المقدسي

التحايا للإعلام الجهادي
قسم التفريغ
١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم **تفريغ**

قراءة في كتاب (مختصر منهاج القاصدين) لابن قدامة المقدسي
فصل: العزلة والاختلاط

للشيخ/ عطية الله الليبي (رحمه الله)

مُؤسَّسَة التَّحَايَا
قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

إذن قلنا أن هذا كتاب [مختصر منهاج القاصدين]

[منهاج القاصدين] لابن الجوزي، اختصره وهـذب به [إحيـاء علـوم الـدين] للغـزالي، وهـذا مختصـره لابن قدامـة، الـذي هو من عائلة الشـيخ الإمـام الفقيه ابن قدامة صاحب [المغني]، والله أعلم.[1]

ويتكلم المؤلف الآن في باب العزلة وفوائدها وفضلها، ســبق أنه تكلم في مطلع البـاب على مـذاهب النـاس، أشـار إليها إشـارات خفيفـة، مـذاهب النـاس -يقصد العلمـاء- في العزلة والخُلطـة، من اختـار هـذه ومن اختـار هذه، يعني من فضَّل هـذه ومن فضَّـل هـذه، وأشـار إلى أن الصـواب فيها التفصيل وأن هذا يختلف باختلاف الأشخاص، وباختلاف الأزمان، وبـاختلاف الأحوال.

ثم ذكر أن للعزلة ست فوائد إجمالية، يعني تحت كل واحـدة كلام طويـل، فهو الآن في الفائدة الثالثة.

"الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى"

الخلاص: يعني العزلة، يخلص فيها الإنسان من مشاهدة الثقلاء والحمقى.

الثقلاء: جمع ثقيل، هو الإنسان الذي يثقل على غـيره بالإيـذاء وبالفضـول، وبكامل المنغصات والمكدرات، يسموهم ثقلاء، معـروف هـذا الاسـتعمال، حتى اليوم عندنا معروف، يقول لك: واحد ثقيل.

"ومُقاساة أخلاقهم"

يتأذى منهم ويقاسي أخلاقهم، يقاسيها ويعاني منها.

"وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء، لم يلبث أن يغتابهم"

فيكون ذلك معناها ذريعةً لاغتيابهم، في العزلة الخلاص من هـذا كلـه، هـذا المقصود.

"فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم"

[1] قد وقع الخلاف في نسبة الكتاب، فمنهم من نسبة الى ابن قدامة المقدسي (صاحب المغني)، ومنهم من نسبة الى ابن اخيه وهو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي وله ذات الكنية.

وإذا قدحوا فيه فالغالب أنه يزِل إلى مكافأتهم؛ يعـني الـرد عليهم بمثل ما آذوه به ونحو هذا، فيقع أيضًا في مذمة.

"فانجرَّ الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامةٌ من ذلك"

فهـــذه هي الفائـــدة الثالثة إذن: الخلاص من مخالطة الثقلاء والحمقى، والناس الذين من هذا القبيل؛ فيسـلم من أن يُسـتجر إلى مكافـأتهم، إلى اغتيابهم، إلى مُقاساة أخلاقهم، والبقاء تحت وطأة ثقلهم وإذايتهم؛ فيضيق صدره وربما يفسد قلبه، في العزلة سلامة من هذا كلـه، هـذا معـنى هـذه الفائدة.

العزلة لا شك أن فيها فوائـــد، كثـــير من الفوائد الـــتي ذكرها قبل هـــذه الخمس فوائد الأولى، أيضًـــا فيها كثـــير من الحق والصـــواب، مع بعض الملاحظات والتقييدات؛ تكلمنا عنها في حينها في الدروس السابقة.

"فصـــــلٌ في آفـــــات العزلة: اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يسـتفاد من الاسـتعانة بـالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة"

بعد ما تكلم عن فضل العزلة وما فيها من الفوائد، طبعًا قلنا أنه أشار في مطلع البـــاب إلى أن الصـــواب في الكلام على فضل العزلة أو الخلطة التفصيل، ونظَّر هو أيضًا هناك بمسـائل مثل: النكـاح وغيرهـا، مـتى يكـون مطلوبًـا؟ ومـتى يكـون تركه مطلوبًـا؟ الأفضل فيه بحسب الأشـخاص والأحوال والأزمنة.

هنا يتكلم على آفات العزلـة، ذكر فضـلها وما فيها من الفوائـد، وهنا يتكلم على آفاتها، أشار إلى أن هنـاك من المقاصد الدينية والأخروية ما لا يتـأتَّى إلا بمخالطة الخلق، هذا معناه، فأنت محتاج إلى المخالطة.

"ومن فوائد المخالطة، التعلم والتعليم"

"التعلم والتعليم" كيف تتعلم العلم والشـــريعة والـــدين والأخلاق والآداب والسائر العلوم التي هي مباحة ومشروعة ومستحبة وواجبة وغيرها، كيف يمكن تتعلمها إلا بالمخالطة، وهكذا إذا أردتَ أن تُعلم.

"والنفع والانتفاع"

عموم النفع والانتفاع، هذا أعم مما قبله، يعني النفع بالعلم وبغير العلم.

"والتأديب والتأدب"

كذلك واضح.

"والاستئناس والإيناس"

الاستئناس بالناس وإيناسهم أن تُدخل عليهم الأنس، أن تؤنسهم، هذا مقصود شرعي؛ لأنه فيه سكينة القلب، وفيه اطمئنان، وفيه راحة، وفي الراحة والاطمئنان والسكينة يفعل الإنسان الخير؛ لأن هذا الإنسان محتاج إلى السكينة، محتاج إلى الراحة، محتاج إلى الاطمئنان، محتاج إلى الأنس؛ ولا يأنس إلا بمجانِسِه من البشر.

"ونيل الثواب في القيام بالحقوق"

كثير من حقوق البشر، حقوق الناس، حقوق الخلق، أنت تُحرم منها في العزلة، أما في الخلطة تنال ثوابها وتُحصلها، وتقوم بها وتنال ثوابها، هذا من فوائد الخلطة.

"واعتياد التواضع"

اعتياد التواضع، لكن المنعزل كيف يتعلم التواضع وهو بعيد عن الخلق؟ لكن من يخالطهم يتربى ويتعلم، وشوي شوي يتعلم التواضع من مخالطة الناس ومعاشرتهم والعيش معهم.

"واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال والاعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة، ولنفصلها"

يريد أن يفصل الآن بعض التفصيل في فوائد الخلطة، مما يرجح جانب الخلطة وفضلها، كما أن العزلة لها فضائلها وفوائدها التي سبق وذكرها، فالإنسان العاقل الفقيه ينظر الأصلح والمناسب لشخصه وفي حاله وزمانه، ويفعل الخير.

"الفائدة الأولى: التعلم والتعليم، وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم"

تقدَّم كتاب [العلم]، في هذا الكتاب -الكتاب يقصد بهِ الباب-

الكتاب هو أعم من الباب وأشمل عندهم في اصطلاح التصنيف، الكتاب يكون تحته أبواب، والباب من الأبواب تحته فصول، وهكذا، فروع، مسائل...إلخ.

"فأما من تعلم الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الخوض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع، فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران"

معناها أن هذا تفصيل للكلام الذي قاله أولًا ويختلف باختلاف الأشخاص، واحد -مثلًا- يُرجى له التبرز في العلم -يقصد أن يبرز فيه-، عاقل ذكي، عنده جلد على السرد والجرد والقراءة والكتابة والسهر، وعنده شغف ومحبة للعلم وفهمٌ فيه، وحسن فهم، ويرجى له أن يكون من أهله وأن ينبغ فيه، هذا يقال له اذهب تعلَّم.

لكن شخص آخر يكفيه أنه تعلم الفرائض، وتعلم ما يقيم صلاته وصومه وضروريات العلم في حقه، العلم العيني المتعين عليه وبعض ما يفيده من المستحبات، وكان عنده جلدٌ وقوةٌ على العبادة ومحبة للعبادة فهذا ممكن يعتزل، العزلة جيدة مناسبة لهذا الثاني الأخير، ولكن الأول لا.

هذا المثال يوضح الكلام الذي قلناه، الذي هو يختلف حكمها وفضلها من عدمه، بحسب الأشخاص وبحسب الأحوال وهكذا.

"ولهذا قال الربيع بن خثيم: تفقَّه ثم اعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام"

"لا خير في عزلة العوام" العالم يعتزل، يعني ما يخالط الناس؛ لأن الكلام هنا عن العزلة بمعنى ترك المخالطة في أكثر الأحوال وعمومها، لكن ليس معناها ترك الجمعة والجماعة وترك الجهاد!

"سُئل بعض العلماء: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: خبالٌ ووبالٌ"

نسأل الله العفو والعافية، كيف يتعلموا؟ وكيف يتفقهوا؟ وكيف يصلح دينه وقلبه وهو جاهل؟ ويعتزل الناس ويترك مجالس العلم ويترك مصاحبة الصالحين!! ما يستفيد يعني.

"فقيل له: فالعالم؟ فقال: ما لك ولها، دعها، معها حذاؤها وسقاؤها"

هذا اقتباس من حديث النبي في باب اللقطة، حديث اللقطة المشهور، يعني لما سئل عن اللقطة، ثم سئل عن لقطة الغنم، فقال: هي لك أو لأخيك أو للذئب.

سئل عن لقطة الإبل، قال: "ما لك ولها، دعها معها سقاؤها وحذاؤها" معناه أنها لا تضيع.

الإبل من شأنها أنها إذا تسرح وتمشي الأيام والليالي وربما تغيب فترات طويلة وترجع لصاحبها، وصاحبها يمشي يطلبها -يدور عليها-، فما تضيع، ومعها حذاؤها وسقاؤها.

حذاؤها: أخفافها، تتحمل المدة الطويلة والمشي الطويل.

وسقاؤها: أنها ما تحتاج الشربة، ما تحتاج تشرب، إذا شربت روت، تبقى مدة طويلة، سفينة الصحراء، والله أعلم.

هذا اقتباس منها، يعني معناه من هو متضلع من العلم فهذا لو اعتزل هو تمثَّل بهذا الحديث، يعني أجراه مجرى المثل ومجرى الرمز فاقتبسه وعبر به عن المقصود هنا، معناها العالم والفقيه لو اعتزل خلاص اتركه معه حذاؤه وسقاؤه.

"ترِد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها"

تمام الحديث الذي هو اقتبسه.

"وأما التعليم، ففيه ثوابٌ عظيم إذا صحَّت النية فيه"

تعليم الناس العلم النافع.

"ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع فهو هلاك الدين"

نسأل الله العافية والسلامة، هذا بالنسبة للمعلم أنه إذا كان قصده هذا الاستكثار من الأتباع وقصده الجاه -أن يكون له جاه- وغير هذا من المقاصد الدنيوية غير الأخروية؛ فهذا -والعياذ بالله- هلاك ووبال على صاحبه.

"وقد سبق ذلك في كتاب العلم. والغالب في هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين فيقتضي الدين الاعتزال عنهم"

هذا النظر إلى الزمان والأحوال، هو يقول لك في هذه الأزمان المتأخرة فكيف بزمننا هذا الآن؟! في القرن السابع أو الثامن وهو يقول هذا الكلام، فكيف بزمننا هذا؟!

لاشك أن الغالب على المتعلمين هو المقاصد السيئة، نسأل الله العافية والسلامة.

"فإن صودف طالبٌ لله ومتقربٌ بالتعلم إليه، لم يجزْ الاعتزال عنه"

"لم يجز الاعتزال عنه" إذا كان محتاجًا لمن يعلمه، أنت إنسان تستطيع أن تعلم الطلبة، آتاك الله علمًا –وكنتَ من أهل العلم- ووجدتَ الطلبة موجودين ومحتاجين لمن يعلمهم، وهم بهذه المنزلة، يعني طالبون لله ولليوم الآخر، وللفوز والنجاة في اليوم الآخر، طالبون للطلب الأخروي الممدوح، يعني المحمود المحبوب لله -سبحانه وتعالى- نياتهم ومقاصدهم صحيحة.

حين إذن لا تنعزل عنهم وتتركهم وتمشي وتقول: أنا أتعبد، وأنا لا أريد أعلم الناس، ولا أنتصب للعلم، ولا أبغي التعليم أو شيء. هذا خطأ، هذا لا

يجوز إذا كان ليس هنـاك من يسد ثغـرة؛ لأن الأصل أنه كفاية إذا وُجد من يعلمهم.

لكن إذا ما وجد من يعلمهم، إلا بمشقةٍ بالغة أو صعوبة، أو لم يوجد أصـلًا، تعـذر، حين إذن لا يجـوز الاعـتزال عنهم بل يجب عليك أن تقـوم بـواجب التعليم، وفيه تفصـيل، هــذا يجــري على هــذا النسق في التفصــيل في أحكامه.

"ولا يحل كتمــان العلم، ولا ينبغي أن يغــتر بقــول من قــال: تعلمنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله"

يعني يريد أن يقول لك: أن هـذه العبـارة الـتي وردت عن بعض السـلف -تجـــدونها في كتب الفقيه والمتفقه وآداب طـــالب العلم- يـــذكرونها أهل العلم، جماعة من السـلف قالوهــا، غــير واحد من الســلف قالها: "تعلمنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله"

ومــرادهم أن العلم يجر صــاحبه إلى الله -عز وجل-، لكن ليس معناها: يا طــالب العلم، لا يهمك النية وتصــحيح المقصد من البدايــة؛ واطمئن لأن العلم سيأتي بك سيأتي بك. لا، لا تفهم هكذا، لا تغتر بهذه العبارة.

لكن معناها أنها تُحمل على أنه ما كانوا يعرفوا، كـانوا جهـال ربمـا، وكـانوا صـبيانًا صـغارًا، تعـرف أنت الصـبي الصـغير لما يرسل إلى الكُتـاب وإلى المعلمين وإلى المـؤدبين يتعلم منهم، يكـون ليس عنـده قصد صـحيح، ما زال لا يعرف الإخلاص والريـاء والمعـاني هـذه وكـذا، وربما يغلب عليه أنه المحبة والشغف بالعلم، ومحبة أنه يكون من العلماء، وأنه يكون متعلم.

وربما يقصد أيضًا مُراءاة الناس والشـهرة، وربما يـدخل عليه هـذا لكن هو ما زال في الغــالب إما تحت التكليـف، وإما في بـدايات التكليف وما زال جاهل، لكنه يكـون فيه صـلاح من جهة انجذابه إلى الله -عز وجل- واليـوم الآخـر، ومن جهة ما رزقه الله -سـبحانه وتعـالى- من لين القلب والتواضع والتعبد لله -سبحانه وتعالى-.

فــإذا تعلم العلم جــره العلم إلى الخــير وانتفى ذلك الفســاد الــذي كــان موجود؛ لأنه ناشئٌ طارئٌ بسبب جهله، بسبب بداية يعني. هذه التي عبروا

عنها السلف، لكن ليس معناها أراه: لا يهمك القصد، لا، بل يجب عليك أن تصحح القصد.

"فإنه أشار بهذه العلوم إلى علوم القـرآن والحـديث، ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذلك يتضـمن التخويف والتحـذير؛ وهو سببٌ لإثارة الخوف من الله -سبحانه- فإن لم يؤثر في الحــال أثَّر في المـــآل، فأما علم الكلام وعلم الخلاف فإنه لا يـــرُد الراغب في الدنيا إلى الله -تعالى- بل لا يـزال صـاحبه متماديًا في حرصه إلى آخر عمره"

أشار إلى محمل هذه العبارة، ووجهها التي ينبغي أن تُحمل عليه، وهو أنها محمولة على من طلب علم الدين، العلم الصـحيح، الكتـاب والسـنة وعلم الشريعة، وأراد أن يتعلم الدين وعنده محبة وانجذاب إلى الــدين والتعلم - مثلما قلنا- هذا ينفعه حتى إن كان في البداية ما زال لا يعرف، لكن ينفعه العلم ويـأتي به للطريـق، يجـره العلم إلى الإخلاص وإلى إصـلاح مقصـده ونيته وإصلاح قلبه ونفسه ويظهر عليه هذا ويرسخ فيه بعد مدة.

أما من كان يتعلم علوم الكلام وعلوم الفلسفة وعلوم المنـاظرة والجـدل فهذا ما ينفعه، فلا يقول: أنا أتعلم هذه العلوم لغـير اللـه، ليست مشـكلة، لكن هي ستجرني إلى الله، لا لن تجـرك! والله لن تجـرك إلا إلى الهلاك -والعياذ بالله-.

"الفائدة الثانية: النفع والانتفاع"

الفائدة الثانية في الخلطة ومخالطة النـاس، النفع والانتفـاع، وهو أعم من العلم والتعلم الذي سبق.

"أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملـة، والمحتـاج إلى ذلك مضطرٌ إلى تـرك العزلـة، وأما إن كـان معه ما يقنعـه، فالعزلة أفضل"

"ما يقنعه" يعني ما يسد حاجته، من عنده ما يكفيه فالعزلة أفضل من هذا الوجه بغض النظر عن الوجــوه الأخــرى؛ لأنك أنت أحيانًا تجتمع الوجــوه

فيحتاج إلى الـترجيح ويحتـاج إلى الموازنـة، لكن كل عنصر هو يتكلم عليه على حده الآن.

إن كان عنـده ما يقنعـه، عنـده ما يكفيـه، وفي حالة قناعة فالعزلة أفضل له، وغير لازم أن يطلب الكسب، العزلة أفضل عن الكسب وعن مخالطة الناس ومعاملتهم.

"إلا أن يقصد التصدق بكسبه، فذلك أفضل من العزلة"

"إلا أن يقصد التصدق بكسبه" يتصدق على الفقراء والمسـاكين ونحـوهم، إذا قصد هذا، ستكون الخلطة مطلوبة؛ لأنه كيف يكسب وهو معتزل؟

"فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة مفيـدةً له معرفة الله -تعـالى- والأنس بـه، عن كشـفٍ وبصـيرة، لا عن أوهـامٍ وخيالاتٍ فاسدة"

هذه أشياء يرجح بينها الإنسان، هو قال لك إلا أن يكون يريد التصـدق، بعد ذلك قـال إلا أن يكـون يـرى أن العزلة أفضل لـه؛ لأنها تفيـده معرفة الله والأنس به، وليس كل الناس هكذا؛ ولهذا احترز وقـال لك: "عن بصـيرةٍ"، وليس عن أوهام.

يعني إذا عرفت بالفعل عن بصيرة وتبين لك أن العزلة مفيدةٌ لك، تفيـدك معرفة الله والأنس به، والتحقق بعبادة الله -سبحانه وتعالى- والسـير في طريق العبودية لله -سبحانه وتعالى- سيرًا صحيحًا مستقيمًا والاجتهاد بهـا، فلا بأس عن بصيرة.

وأضاف هو: "أو كشفٍ"

طبعًا العلماء وقع منهم هذا كثير، خاصةً في هذه القـرون، وفيه حـقٌ وفيه باطلٌ، ما نريد نتكلم فيه الآن، لكن المقصود إذا كان عن بصـيرة تـبين لك هذا لا بأس، لكن إذا كان أوهام؟ ظننتَ أنه ممكن يفيـدك وهو ما يفيـدك! فاحترز من هذا وانتبه وما ترجح به.

"وأما النفع: فهو أن ينفع النـاس إما بماله أو ببدنـه؛ لقضـاء حـوائجهم، ومن قـدر على ذلك مع القيـام بحـدود الشـرع فهو

أفضل من العزلة إن كـــــان لا يشـــــتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات، والأعمال البدنية"

لأن هذه الأعمال التي ينفع بها الناس أعظم من الاشتغال بنوافل العبادات القاصرة من صلاةٍ ليلًا ونهارًا، وقراءة القرآن وذكر لله وهكذا.

نفع النـــاس مقـــدمٌ عليها إلا القـــدر المتعين منها أو الـــواجب طبعًـــا، لكن المستحب منها والمتطوع بها أفضل منه الاشـتغال بنفع النـاس، طبعًا هـذا في حالة عـــدم التعين، لا هـــذا ولا هـــذا، إذا تعين فـــالمتعين هو المتعين خلاص، المتعين هو الأفضـل، (ما تقـرب إلي عبـدي بشـيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه).

لكن في حال أن كونها نوافل جميعها وكونها كلها تطوعات فالاشــتغال بما ينفع الناس الذي هو نفعه متعدي أفضل.

من مرجحات الأعمال التعدي والقصور المتقررة عند العلمـاء، وهـذا لأدلة الشــريعة على هــذا أن العمل الــذي ينفع النــاس أفضل من القاصر على نفسه في العموم وفي الأغلب، ولكن قد يكون في فــروع هـذا الأصل فيه بعض التفصيل.

"وإن كـان ممن انفتح له طريق العمل بـالقلب بـدوام ذكـرٍ أو فكر، فذاك الذي لا يُعدل به ألبتَّة"

هذا إشارة إلى أنه قد يـترجح القاصر أحيانًا على المتعـدي، طبعا هـذا كله مقيد إذا لم يتعين هذا الفعل المتعدي، أو القصر لم يتعين أحــدهما، لك أن تتنفل بالعبادة كالصلاة وتلاوة القرآن، ولك أن تتنفل بأن تذهب للناس هنا، النـــاس جالسة تبـــني تحضر معهم الطـــوب وتعـــاونهم وتخـــدمهم قليلًا، هم محتاجين من يعاونهم، أيهما أفضل؟ ونحو هذا قِسْ عليه.

فيقـــول لك في الأغلب والأعم نفع النـــاس أفضـــل، لكن قد توجد بعض الحــــالات -بعض النـــــاس- الأفضل له هو أن يبقى في بيته أو في عزلته ومكانه ويتعبد؛ لأنه أفيد لقلبه، لأنه ينفتح عليه في العبـــادة، ولا يختلف فيه الناس.

هـذا إذا جلس للعبـادة وقـراءة القـرآن يفتح عليه في الإيمـان، مقامـات الإيمان والاتصال بالله -سبحانه وتعـالى- ومناجـاة الله -عز وجل- ودعائـه، ويحصل له علو في الإيمـان وكمـال وتمـام، فهـذا يكـون في حقه أفضـل، والله أعلم.

يكفي هذا القدر، وجزاك الله خيرًا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.